فرحاً و ليس قبولاً

سئل أوشو مرة « ما هو القبول الكلي ؟ »

تحمل هذه العبارة في الحقيقة في أحد أركانها ظلاً لعدم القبول ... تم التبشير و الوعظ بهذه العبارة لأننا و ببساطة نحيا بحالة « رفض كلي » فعلينا دائماً أن نحكم بوجود خطأ ما بكل ما يحدث حولنا.

شيء واحد علينا فهمه و هو: كل ما ندعوه صفات وخصائص دينية نتصف بها ما هي إلا ردود أفعال، وكانت نتيجة ردود الأفعال هذه أن تحولنا إلى العنف و القسوة وبدأنا عندها بتطوير نظرية اللاعنف.

قد يدرك من يتحول إلى العنف عقلياً خطأ ما هو عليه و قد يتعدى ذلك إلى حالة من الشوق و الرغبة ليكون إنساناً مسالماً و معادياً للعنف، و لكن لا بد للاعنف هذا أن يحمل الموقف المتشدد نفسه .

لا يقتصر هذا على الأناس العاديين بل أن أناساً كالمعلم والزعيم الهندي غاندي كان رافضاً، غاندي الذي أصبح رائداً لحركة اللاعنف ستجد أن عنفاً قد تجذر عميقاً في حياته... و لك بعض الأمثلة .

كان غاندي رافضاً لكل شيء تم تطويره اعتماداً على العلم، التكنلوجيا و الذكاء الإنساني وخاصة بعد استعمال عجلات الغزل الآلية التي اعتبرها توقفاً للتاريخ، ولكن لماذا اتخذ هذا الموقف و لماذا كان متشدداً ؟ لا تستطيع النظرة المباشرة تفسير ذلك و لكن لو استمر توسع انتشار تلك الآلات و لا سيما في الشرق سيفقد العديدون أعمالهم... لا زالت هذه المشكلة في تزايد حتى الآن إضافة إلى أنها عمت العالم بأسره و خاصة بعد انتشار الحواسيب و الأتمتة الصناعية.

في حياته الخاصة و العائلية كان غاندي قمة في القسوة والعنف، فقد أراد ابنه الأكبر هاريداس أن يتعلم على الطريقة الغربية الأمر الذي كان غاندي رافضاً له طيلة

حياته... هل ترى في هذا الرفض شيئاً من اللاعنف ؟ لا يدرك إنسان الحب و العواطف سوى عالم واحد، لكن غاندي قال لهاريداس « إذا أردت تلقي علوماً غربية فلن ترى وجهي ثانية.»

لقد أغلقت جميع الأبواب أمام هاريداس الذي لم يسمح له فيما بعد بإشعال النار في جسد والده عند الوفاة، فقد كان الوالد واضحاً و اعتبر تعلم ابنه بمنزلة الحياة والموت، كل ذلك لأن الابن الأكبر أراد أن يتعلم على الطريقة الغربية .

كان لدى غاندي بعض الأفكار التعصبية التي لا يمكن أن تتوافق مع اللاعنف بأي شكل من الأشكال، فقد كان يقول مثلاً «على الجميع المساهمة بتنظيف المراحيض!» و بالطبع نعني هنا المراحيض الهندية و ليست الغربية التي فيها بعض وسائل النظافة... لم تستطع زوجته أن تفهم عندما أجبرها على المساهمة في تنظيف دورات المياه العائدة لتلاميذه فرفضت لكنه قال لها « إن لم تفعلي

فلن يعود هذا المنزل منزلاً لك و لن أعود زوجاً لك... » قد يتناسب هذا مع رجل دكتاتوري عنيف أما أن يظهر من رجل محب، فلا أظن ! { و لكن هل كان غاندي يسهم شخصياً بتنظيف المراحيض ؟ الجواب هو : لا أعلم }

اختبأ هاريداس مرة في جمع من المواطنين في إحدى محطات القطار عندما صادف والديه بالقطار عبرها، فقد أراد الابن رؤية وجه والدي عن بعد و لم يسمح لنفسه بالاقتراب... أعلم غاندي من قبل مرافقيه بأن هاريداس ينتظر في المحطة القادمة فأمر على الفور بإغلاق جميع الأبواب و النوافذ في المقصورة و قال لزوجته الباكية «كفي عن البكاء لأن بكاءك دليل على أنك مع ابنك ولست معي!» كل هذا بسبب العلم بطريقة معاصرة .

كما نعلم فقد بارك غاندي أول ثلاث طائرات لتذهب و تهاجم المسلمين في الهند .

و هكذا نرى أن هناك العديد من مواقف العنف في حياة هذا الرجل و التي تمت تغطيتها بمظلة اللاعنف.

علينا أن نتذكر أمراً: إما أن يكون القبول كلياً أو أنه ليس قبولاً على الإطلاق، أما عندما نقول « قبول كلي » فنظهر أننا نكبت في لا وعينا شيئاً ما و نستخدم كامل قوانا للإبقاء عليه مكبوتاً .

فعلى القبول أن يكون بسيطاً .

على قبولنا أن يكون عفوياً و عليه ألا يكون ناتجاً عن الالتزام بإيديولوجية معينة؛ يجب أن ينبع قبول أحدنا من فهمه و عندها لا حاجة بنا للسؤال فيما إذا كان قبولاً كلياً أم غير كلي .

وضوح الرؤية وحده من يريك إذا كنت قابلاً أم غير قابل، أما « قبول كلي » فلا يظهر شيئاً عن اختبار عميق في هذا الخصوص... لم التركيز على «كلي، جداً» و غيرهما من وسائل التأكيد؟ يظهر هذا أن هناك شيئاً مكبوتاً لم نفهمه... و نكرر هذا في أبعاد متعددة من الحياة فعادة ما نقول « عقة كاملة، قداسة مطلقة و استسلام كلي » لم نحتاج قباحة هذه الكلمات للتأكيد... انظر في الحياة

العادية، أيمكن أن تقول لفتاة « أحبك كلياً أو أحبك تماماً » ألا يكفي الحب وحده و لا حاجة لهذه الـ«كلياً»... في اللحظة التي نستخدم فيها هذه الكلمة يولد الشك، حيث نحاول إخفاء شيء ما باستدعاء كلمات عظيمة كهذه .

القبول جميل و لكن أن يكون كلياً فلا؛ جميل أن يظهر القبول و قد أشرق من أعماق و عيك و ليس من النصوص أو من تعاليم من نسميهم معلمين ينتشرون في العالم .

إنه فهمك الحقيقي، و عندما يصبح الأمر كذلك فلا حاجة لشيء، و حتى القبول يصبح عديم الجدوى و المعنى .

عندما يسود الصمت، عندما تغني الطيور على الأشجار وعندما نتلقى أشعة الشمس فهل يتبقى أي معنى أو سؤال عن قبول أو عدمه ؟ إنه يحدث بكل بساطة و ليس وفقاً لنظريات و تدريبات فكرية، أنت هناك بإرادتك و لست بحاجة لبذل الجهود و يا له من جمال فأي جهد سيدمر كل شيء .

دعنا نكرر هذا بطريقة أخرى...

هل تحتاج جهداً لتحب ؟ هل يحتاج العطف و الحنان لبذل أية جهود ؟ هل تحتاج حياتك لبذل الجهود؛ أيتعبك التنفس؛ أيتعبك قلبك في خفقانه ؟

و هكذا تسير الحياة بعفويتها و براءتها، و تتدفق كنهر سعيد و يحدد كل من وضوح رؤيتك و قابليك للتلقي في أي اتجاه تسير، و لكن دون جهود لأن هذه الأخيرة دليل على وجود انقسام فيك حيث يحاول جزء قيادتك باتجاه محدد ويحاول جزء آخر قيادتك باتجاه آخر و هنا يأتي الجهد... لا يمكن أن يحيا مع الجهد سوى إنسانية انفصامية .

لم يعرف أوشو بحياته أية جهود، و لا يمكن لإنسان بذل الجهود أن يعرف التوافق و التناغم مع الوجود... فمع من نتصارع ؟!! فما الجهد إلا صراع .

لا حاجة في الحياة لتدريبات و لا حاجة لأوامر، لا تريد الحياة منك أن تصبح أحدا، بل تريدك أن تكون أنت

وحسب... جميل أن تكون أنت و جميل أن تتعرف على الطريقة التي تكون فيها أنت .

لا تبذل الأشجار أية جهود... الشجيرة الصغيرة سعيدة و هي بغاية السعادة لأنها صغيرة، و الأشجار الأبدية الطويلة سعيدة و هي في غاية السعادة لأنها طويلة ولا حاجة للمقارنة و لا حاجة بينهما لولادة أي شعور بالدونية أو الفوقية... إنها عفوية و براءة كل منهما...

إنهما كما هما .

و في هذا الاسترخاء الأبدي يلقي القبول بظله، يأتي بهدوء و صمت و دون أي وقع للخطى .

أما أن نقول « قبول كلي » فمعناه أن هناك في داخلنا ما هو غير مقبول و ربما يكون هو جزء الدونية و نستحضر هذه الكلمات و الجمل لكبته .

قدم شاب إلى أوشو و قال « أريد الاستسلام الكلي بين يديك !» فأجابه « عد من حيث أتيت إذاً، فقد طرقت الباب الخاطئ، و عندما تزول لديك كل فكرة عن

الاستسلام و عن الكلية سترى أبوابي مفتوحة أمامك، أرحب بك و أفرح بقدومك و لكن كما أنت دون تقليم للأغصان و دون التقولب بأية مثالية و لن، تفعل جميع الأديان في العالم الشيء نفسه و هو أن تطلب منك أن تكون شيئاً ما و ألا تكون كما أنت .»

ثم قال لأحد تلاميذه و يدعى آمرت و قد أوشك على إصدار كتاب بعنوان « سنوات من الإعداد » « ستكون هذه آخر الكلمات في حجك المقدس و في رحلة بحثك عن الحقيقة...» يحمل عنوان كتاب هذا المريد و الذي سيصبح معلماً معنى خطيراً، حيث يدل على أنه يعد لتحقيق شيء ما؛ يعد ليكون شيئاً ما، أي أن هناك خطة محددة، فلربما يعد هذا الإنسان أن يكون بوذا أو المسيح مثلاً؛ قد يكون هناك هدف بعيد المنال يصبو لتحقيقه... فقال أوشو «هذه كلماتي و عليك وضعها بين قوسين: ذهبت أعوام الإعداد هذه سدى فلا زلت كما أنت.»

قد يكون الكسل مفيداً بعض الأحيان و خاصة عندما يدرك الإنسان الحقيقة... عندما يعلم الإنسان مكانه الحقيقي فلا حاجة للدوران الكثير حوله، لا يمكنك أن تكون شيئاً لست معتاداً على أن تكونه، و لا حاجة لتعد لم اعتدت أن تكون .

لكن آمرت قال بأنه طيب القلب و بريء كالأطفال و بأنه متحرر من حب المال و حب القوة و متحرر من الحب المشروط و من العلاقات .

عاد أوشو و قال « هناك شيء آخر عليك التحرر منه...» فنظر التلميذ و قال «ما هو ؟ » فقال المعلم « هو تحررك من الشوق لتكون شيئاً ما، فأنت ذلك الشيء، أما الآن فعليك أن تعلم بأن رحلتك كانت تدريباً على الضياع فلا زلت تقف لا حيث أنت و تحلم بتحقيق شيء ما... إذا لم تنجح تلك السنوات بتحقيق هذا التحرر لك فهي عديمة الجدوى.» يأتي الإنسان إلى هذا العالم باحثاً و سائلاً و هذا طبيعي بحالة أو بأخرى، و يأتي النضج عندما يدرك أحدنا «إلهي،

أنا هو الإنسان الذي أبحث عنه » لذلك سيبدو عنوان آمرت غريباً بعض الشيء بالنسبة لمن توصل لاستنتاج كهذا في النهاية... سنوات من الإعداد... و لماذا يعد ؟ إعداد ليعلم أنه ليس بحاجة ليعد إلى شيء.

كما تابع أوشو محدثاً آمرت عن مجموعة ثمينة و فائقة الجمال من الصور وجدت في الصين في أيام لي تسو وتشانغ تسو Chuang Tzu، و هي عشر صور تصف رحلة السائل أو رحلة الحج المقدس لأحدنا.

دعيت هذه الصور بـ« الثيران العشرة للزن »... حيث يضيع الثور في الصورة الأولى و من الطبيعي أن يبدأ صاحبه بالبحث عنه في كل مكان حيث لا يعثر على شيء في البداية، أما في الصورة الثانية فيجد آثار أقدام... قد عثر على دليل الآن، أما في الصورة الثالثة فيجد الرجل الثور، لا يراه كاملاً بل يلمح ذيله بجوار شجرة كبيرة... بدأت الآن الأمور تتوضح شيئاً فشيئاً، و يرى في الصورة الرابعة نصف الثور .

يرى الرجل في الصورة الخامسة الثور بأكمله، و يمسك به من القرون في السادسة أما في السابعة فيمتطيه عائداً إلى البيت... في الصورة الثامنة أدخل الثور إلى مكانه المعتاد، وفي التاسعة يجلس الرجل خارجاً يعزف على نايه .

عندما نقلت هذه الصور إلى اليابان تم إسقاط آخرها و هي العاشرة، و قبلت التسع الأولى فقط... ما الذي تحتاجه أكثر ؟ عدت إلى المنزل و جلست تعزف الناي... كل شيء رائع الجمال فقد عثرت على ما فقدت .

في الحقيقة علق اليابانيون عند الصورة التاسعة و أسقطوا العاشرة و هي الأهم بين الجميع إلا أنها تخالف موروثاتهم الدينية و الأخلاقية... في الصورة العاشرة يذهب الرجل إلى السوق حاملاً بيده قارورة من نبيذ يسكر... الآن يعود بوذا إلى المنزل !!

مالم يصبح بوذا عادياً فلا زال كل شيء رحلة استكبار لا غير و أن تصبح عادياً معناه أن تصبح كالأشجار و الطيور؛ أن تصبح كالحيوانات و الجبال و قبل ذلك لا حاجة لأي

حديث عن أية رحلة روحية لأن كل شيء لا زال رحلة استكبار و غرور .

مؤلم أن بوذا صرخ مرة « أنا هو المستنير الوحيد في هذا العالم و لا يمكن لإنسان بلوغ استنارتي ! » إنها مشكلة الضياع في الصورة التاسعة... إنها مشكلة أن نصبح ما اعتدنا أن نكون .

إن الفكر مخادع للغاية بأساليبه و ممارساته، فهو يريد أن يصبح الرجل الأغنى في العالم؛ يريد أن يصبح الرجل الأقوى في العالم... أن يكون «الأكثر» في أي شيء، المهم أن يحتل القمة... من الصعب أن ترى بوذا في حانة لكنها المكان الصحيح، فقد عاد إلى البيت و قبل عفويته الطبيعية .

لا حاجة للتفكير بقبول كلي بل الحاجة للبحث عن جلاء أكثر، عن عفوية أكثر و عن طبيعية أكثر و سيأتي القبول كظل لهؤلاء ... لا تنشغل به .

الحياة بحد ذاتها قبول عظيم دون أن نعلم بذلك... أتقبل عينيك تماماً؟ أتقبل جسدك تماما ً؟ أتقبل تماماً حالتك الحياتية ؟ تدفعنا فكرة القبول التام و التي فرضت علينا للشعور بالتعاسة ذلك لأننا نقع و باستمرار بفخ المقارنة، فلأحدهم عيون أجمل من عيوني و لآخر جسد أقوى و قد يكون أحدهم متعلماً أكثر... و هكذا تستمر المقارنات حتى تصل بنا لشعور بالدونية يعمل باستمرار على التهام قلوبنا، و بالتالي نتحول إلى التعاسة أكثر فأكثر، والسبب الوحيد هو الاستمرار بإقامة تلك المقارنات غير الضرورية... لا حاجة للمقارنة فلا يوجد في العالم شخص مناسب تقارنه بنفسك .

أنت فرد وحيد و مميز، و كائنة ما كانت حالتك فتلك هي الطريقة التي أرادها لك الوجود فاستمتع بها .

و الآن علينا تجاوز القبول أيضاً و تغييره و السبب أنه لا فرح في القبول، فهناك دائماً ما يجب فعله... هناك من هم

أجمل مني، هناك من هم أغنى مني و هناك من هم... فما العمل إذاً إنه القبول و الرضا.

لا نقصد القبول بهذه الطريقة؛ لا نقصد القبول الذي علمتنا عليه الأديان بل القبول الذي يستنهض الفردية فينا . أنت كنفسك و لا يوجد في العالم – سواءً في الحاضر، في الماضي أم في المستقبل من يشبهك... لقد منحك الوجود فردية مميزة فحلق بها فرحاً و عند التحليق سيأتي القبول دون أن تفكر به... لا تشعر أو تحاول أن تكون أحداً ما لأن الوجود يريدك أن تكون «لا أحد» يا له من فرح غامر أن تكون « لا أحد. »

عندما كان أوشو طفلاً في المدرسة اعتاد معلموه على القول « سينتهي بك المطاف باللاأحدية » أي أنه سيكون لا أحداً{كانوا يقصدون الفشل المدرسي بالطبع }لكنهم كان محقين بالمصادفة رغم جهلهم فأوشو أعظم و أسعد الناس بما حققه كونه نجح في أن يصبح لا أحداً... بعد فترة اعتاد على زيارة قريته و أحياناً ما كان يقابل من

كانوا معلمين له في المدرسة و الذين كانوا يحاولون أن يصبحوا أحداً و يسألهم كيف تسير معهم الأمور فهو سعيد كونه لا أحد و لا يبدو عليهم سوى البؤس و التعاسة.

تجاوز كل شيء عن القبول و القبول الكلي، فلم علينا كل ذلك ؟ أن تقبل نفسك فكرة كبت و قسوة... افرح، ارقص و غن و اجعل العالم يدرك بأنك وحيد، مميز و لا يمكن لأحد الحلول مكانك، هذه هي الطريقة الوحيدة للبحث الصادق عن النفس... فلا مقارنة و لا حاجة .

مدهش لكنه حقيقي أن نعلم بأن العديدين ممن ندعوهم عظماء التاريخ كانوا يعانون من عقدة الدونية... لم يتجاوز طول نابليون بونابارت المئة و السبعين سنتيمتراً الأمر الذي عذبه طوال حياته، فقد كان أقصر من جميع حراسه... ويروى أنه كان مرة يصلح صورة في غرفة نومه فلم يستطع الوصول إليها فقال الحارس « دعها لي فأنا أعلى منك » غضب بونابارت و قال « عليك أن تستبدل تلك الكلمة فقل

«أطول»...» و لكن ما الفرق ؟ تتميز الكلمة «أعلى» بوقع شديد و إحساس بالدونية، «أما أطول» فمعتدلة و تبدد الكثير من ألم الدونية.

و لكن لم يتجاوز طول أوشو أيضاً المئة و السبعين سنتمتراً لكنه لم يعاني من أية دونية و لم يذكر ذلك عنه أحد، فالمهم حسب رأيه أن تصل قدماك إلى الأرض و مهما كنت طويلاً فلن تلامس رأسك السماء .

لم يكن أبراهام لينكولن رجلاً وسيماً، كما كان يعاني من لعثمة و تأتأة في الكلام مما جعله يشعر بالدونية فهذا غير لائق بمرشح رئاسي كما يقلل من فرص الفوز في الانتخابات... اقترحت عليه طفلة صغيرة « لو كانت لك لحية صغيرة لمنحت وجهك شكلاً أكثر جمالاً » عمل بنصيحة الفتاة فنجحت اللحية في الانتخابات و فشل هو ... لم يجد كل ذلك لينكولن نفعاً فقد بقيت عقدة الدونية موجودة تلاحقه و لم يعلم ماذا سيفعل بتلك التأتأة... لقد شعر بالدونية حتى مع الإنسان العادي .

بنظرة نفسانية حكيمة و عميقة و نجد أن معظم السياسيين ولدوا من عقدة نقص و دونية فهذه الأخيرة جرح مؤلم يدفع بصاحبه ليثبت للعالم بأنه ليس كذلك « أنا رئيس ، أنا رئيس وزراء و أنا وزير...» لكن السعيد بنفسه هو آخر الملتحقين بصفوف السياسيين بمستنقعهم .

في اليوم الذي تصبح الإنسانية فيه سعيدة بإنسانيتها يختفي السياسيون و تختفي الأديان، يختفي الكهنة و القديسون و يختفي الأخلاقيون فجميع هؤلاء هم أناس امتلؤا بالقباحة و يحاولون تغطية شعورهم بالدونية بأن يصبحوا شيئاً ما أو ادعاء ذلك على الأقل... إنهم منافقون... إن عالماً دون سياسيين؛ إن عالماً دون كهنة و قديسين؛ إن عالماً دون من ندعوهم معلمين سيكون عالماً جميلاً و آمناً؛ سيكون كحديقة مليئة بالورود و قد أشرقت عليها شمس صباح أجمل أيام الربيع... فلسنا بحاجة للحروب و لسنا بحاجة لدول و أمم؛ لسنا بحاجة لأن يدعي أحد أفضليته و لا حاجة ليعاني آخر من جرح الدونية .

الهدف هو أن يكون كل فرد و بصدق كما أرادت له الطبيعة أن يكون و ستختفي مشاكل العالم من تلقاء نفسها لأنها وليدة العصابية و الانفصامية و غيرهما من أنواع الجنون التي تعبر عن نفسها و تتمظهر بمظهر الأغنى و الأقوى .

ولد كل إنسان بقدرات و مواهب محددة، فإذا قبل ما هو و استخدم تلك القدرات لإبداع شيء ما فلا شك أنه سيكون سعيداً بكونه « لا أحد.»

لا يشترط أن تكون أغنى رجال العالم أو أقواهم لتكون سعيداً فهذه طرق صبيانية سخيفة ورثناها عن أسلافنا البدائيين .{و لكن ليسوا الطبيعيين }

فلننسى كل شيء عن القبول و القبول الكلي و لنستبدل به الفرح بأنفسنا و عندما نفرح بأنفسنا يفرح بنا الوجود؛ عندما نفرح بأنفسنا نكون قد بدأنا بالتناغم مع الرقص الجميل المتناغم الذي يملأ الوجود من حولنا .

وحده الإنسان مفكك و ممزق و السبب في ذلك أنه يريد أن يصبح أحداً مميزاً و إذا أردت أن تكون مميزاً عليك أن تقبل أحد أنواع الجنون .

ما لم تفرح بمن و ما و أين أنت فلا يمكن القول بأنك سليم عقلياً، فالمعنى الوحيد للسلامة العقلية هو استمتاع الإنسان بطبيعته .

obeikandl.com